(٣٥)

الممتحنة

سورة الحُبّ والبغض في الله

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) يوليو (١٩٧٣م)

التعصب وصف رديء عندما يكون معناه جمود الفكر، وانحصارالأفق، والتشبث بالهوى، والجنوح إلى الباطل مهما بدا عواره.

ونحن نرفض هذا الوصف ونأباه على أنفسنا وقومنا..

ولكن عندما يكون التعصب أثرًا لاحترام الحق، وإكبار أهله، ودعم جانبهم، وكره عدوهم، فإن التعصب هنا يرادف الإيمان والجهاد، ولا يتخلى عنه امرؤ ذو دين!

وفي العالم اليوم:

- حقائق أرخصها الضعف.
- وحقوق هضمها البغي.
- وقوى شرسة استمرأت العدوان.
- ومسلمون طمع فيهم من لا يدفع عن نفسه، حتى كأن البغاث بأرضنا يستنسر!

أفلا يوقظنا مرأى هذه الصور الكريهة إلى أن نعرف من نحن؟ وماذا نحمل من رسالات الله؟ وماذا نستطيع أن نسديه لأنفسنا وللعالم أجمع لو غالينا بديننا وتاريخنا، وشققنا الطريق إلى المستقبل على سناه الهادي؟

وعندما أقرأ سورة «الممتحنة» يحيا في نفسي معنى التعصب للحقيقة، والدفاع عنها، والوقوف إلى جانبها على رقة الحال، وكآبة المنظر في الأهل والمال!

إنه ليس من الشرف أن أجامل من يهين الحق، وليس من صدق اليقين أن أمالئه وأترضاه.

وقد نزلت سورة «الممتحنة» لتلقن المؤمنين هذا الدرس حتى يبقى حيا في نفوسهم إلى يوم الدين، فقال جلَّ شأنه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ..﴾.

عيب واضح أن أصادق عدو الله وعدوي، وأن أبسط يدي ولساني له بالسلام، وهو يزدري ما عندي- ولا يتوانى!- ومن هنا عللت السورة النهي عن المصافاة، فقالت بعد إثبات كفرهم:

﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ..﴾

لماذا؟ ﴿... أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾

ثم اطرد السياق القرآني يقول:

﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ...﴾

أي فلا تسلكوا هذا المسلك، وتطووا قلوبكم على حب من طردكم وأهانكم!

كيف تفعلون هذا؟.

﴿... تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾؟

والتعبير بـ «أنا» في هذا الوضع يفرض علينا أن نتوقف قليلا لنتدبره فقوله جلَّ شأنه:

﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ فيه معنى التحذير من الرقيب الخبير.

وهذا المعنى صرحت به سورة أخرى في مثل هذه القضية قال تعالى:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ (آل عمران: ٢٨)

والغريب أن هذا التحذير يتكرر في الموضع نفسه، مؤكدا علم الله بما نخفي وما نعلن، حتى لا نتورط في مسالمة عدو يبتغي إبادتنا، أو الوقوف منه موقفا بعيدا عن الصرامة والمفاصلة، فقال جل شأنه: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ (آل عمران: ٣٠)

تحذير يتكرر مرتين بعبارة رهيبة هي ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ إنها هناك توضيح لقوله هنا: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١).

هكذا بدأت سورة «الممتحنة» تعلمنا ضرورة التعصب للحق، والتمسك بأهدابه، وكراهية المعتدين عليه، والنفور من مودتهم.

وإذا كان هذا المعنى الحاسم قد تصدرها فإنه قد تمشى في آياتها على صورة متفاوتة، ثم كان لها الختام المبين فقال جلَّ شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾(١٣).

إن «الأحياء» من الكفار قد قنطوا من عودة إخوانهم الذين ماتوا إلى الحياة مرة أخرى، أو إن «الموتى» من الكفار قد يئسوا من الحصول على مكان عند الله في الدار الآخرة.. سواء كان هذا المعنى أو ذاك فإن المؤمنين لا يليق أن يصادقوا قوما تلك حالتهم!

ولنلق على السورة من بدئها إلى ختمها نظرة جامعة نتعرَّف بها أسباب

النزول كما ذكرها المفسرون والمؤرخون.

❖ ❖ ❖

لقد استغرق نزول هذه السورة- على وجازتها- قريبا من عامين، وصدرها نزل في السنة الثامنة عندما قررت الكتائب المؤمنة أن تجهز على الوثنية المتحكمة في مكة، وأن تعيد إلى دائرة التوحيد هذا المعقل الأشم.

ووسط السورة نزل في السنة السادسة بعد ما تم عهد الحديبية بين المسلمين، وأهل مكة، وبدأ التنفيذ وظهرت بعض المشكلات.

وآخر السورة نزل بعد الفتح الكبير، وإقبال أهل مكة رجالا ونساء على مبايعة الرسول ﷺ والالتزام بتعاليم الإسلام.

ومع الاختلاف الزمني الملحوظ في نزول الآيات فإن ترتيبها لم يفقد ذرة من الاتساق والتماسك، بل هو نسق من الإعجاز الساري في أسلوب القرآن الكريم كله.

وأشعر بأن القرآن في علم الله القديم كان على هذا الترتيب الذي نحفظه، وأن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث، ثم يأمر الرسول بوضعها في مكانها بتوقيت إلهي، فتعود إلى وضعها الأزلي على النحو الذي يقرأ الآن، والمحور الذي دارت عليه السورة كلها، هو الحب والبغض في الله، وهو قاسم مشترك بين أجزاء السورة منذ بدأ النزول، ولذلك فإن وحدة الموضوع ظاهرة شائعة فيها؛ ففي أوائل السورة نقرأ كيف رفض القرآن الكريم ما وقع من حاطب بن أبي بلتعة الذي راسل أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للسير نحوهم، كي يأخذوا أهبتهم! وهو عمل شنيع، ولولا أن رسول الله ﷺ عفا عن الرجل تقديرا لسابقته في خدمة الإسلام لكان جزاؤه القتل.

وهنا نرى الوحي- بعد استنكار التصرف السابق- يقول للمؤمنين:

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٣). أي لا يجوز أن يخفف شيء ما من حدة الخصام للكفر وشيعته، ولو كان الحرص على القرابة والولد والمال؛ فإن جانب الله أولى بالرعاية.

والمثل الأعلى أن يقول المؤمنون لأعدائهم ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ (٤).

وهذه مصارحة بالقطيعة في سبيل الله، ومعالجته بالحب لله والبغض لله، وليس أمام المؤمنين إلا هذا السلوك.

وقد كان إبراهيم والمؤمنون معه على هذا الغرار، وإذا كان إبراهيم قد لاين أباه يوما وقال له ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ ﴾(٤).. فذلك اللين ليس مهادنة للضلال، ولا ضعفا في الإحساس بحق الله.. كلا ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ﴾ (**التوبة: ١١٤**).

وهكذا تقطعت أغلى الصلات إيثارًا لحق الله.

إن حق الله على عبده لا يرجحه شيء في الأولين ولا في الآخرين، والاستهانة به ضلال مبين.

هل هذا التجهم الشديد ضد الضلال والضالين يرجع إلى غلظة طبع أو شراسة خلق! لا.. لا.

إننا في شوق إلى سيادة السلام، وامتداد عواطف الحب إلى كل قلب، والأمر بيننا وبين خصومنا واضح مستقيم، فمن حاسننا حاسنّاه، وكنا أسرع إليه بالود والرحمة.

ولكن كيف نلين مع من استباح كرامتنا، ونَشَدَ إساءتنا وإهانتنا، وأخرجنا من ديارنا وأموالنا؟ إن مصادقة من يفعل ذلك بنا نذالةٌ، وخسةٌ لا يهبط إليها مؤمن، قال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٨، ٩).

والظلم هنا الهوان، وقبول الدنية، والاستكانة إلى الضيم، والرضا بحياة الفسوق والمروق، والعيش في كنف الفاسقين المارقين.

هذا صدر السورة الذي استغرق نصفها، ونزل في السنة الثامنة.

أما وسطها الذي نزل من قبل، فهو يعود بنا إلى نص في معاهدة الحديبية يقضي بأن يرد المسلمون عن المدينة من لحق بهم مؤمنًا من أهل مكة، وإن كان أهل مكة يقبلون من لحق بهم مرتدا!

ومع أن الأيام أثبتت جدوى هذا النص على المؤمنين إلا أن القرآن الكريم استثنى النساء ابتداء من تطبيقه، وأمر المؤمنين أن يمتحنوا المؤمنات الفارات بدينهن، فإذا علموا منهن صدق الاعتقاد وشرف الغاية قبلوهن في المجتمع الإسلامي فورا.

إن هؤلاء النسوة المهاجرات التاركات لأزواج كافرين يجب أن نرحب بهن وأن نقدم تحية إكبار للعاطفة التي خرجت بهن إلى دار الإيمان، لقد كرهن رجالهن وفارقنهم لله فلا ينبغي أن يُعَدْن لهم، قال تعالى:

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾(١٠).

وإتمامًا لإقامة المجتمع على احترام الدين، وإعزاز مشاعر الحب والبغض لله صدر الأمر بتسريح الزوجات الكافرات: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (١٠).

إن قبول هؤلاء النساء المؤمنات ومفارقة الكافرات تشريع متكامل وحكمته واضحة، وقد نفذت معاهدة الحديبية بالنسبة إلى الرجال الذين ما لبثوا أن نظموا حرب العصابات ضد أهل مكة حتى اضطروهم إلى أن يطلبوا من الرسول قبولهم في المدينة!

ونصل إلى آخر السورة لنقرأ بيعة النساء، كان ذلك بعد فتح مكة واستسلام أهلها لكتائب الرحمن.

إن أولئك الناس طالما آذوا الله ورسوله، وها هي ذي «هند» المرأة التي أكلت كبد حمزة قد أعلنت دخولها في الإسلام، فماذا نصنع معها؟

لا شيء! ننسى الماضي، ونغفر الأخطاء ونعلمها وصاحباتها كيف يتأدبن بآداب الإسلام، ثم يصبحن- بَعْدُ- أخواتنا:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢).

نعم.. إن الله غفور رحيم، فلننس الماضي ولنتحاب في الله.. لقد كان القرآن في هذه السورة يرقب متاب هؤلاء وعودتهن إلى الصواب وإقلاعهن عن إيلام المؤمنين، قال تعالى:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٧).

والمودة المرتقبة إنما تقع مع أناس يخف ضغط التعصب على قلوبهم ورؤوسهم، ويجوز أن تنقشع غيوم الغفلة عن آفاقهم وضمائرهم.

فإن المرء قد يخطئ لملابسات معينة أحاطت به، وربما ظل على خطئه لأن هذه الملابسات بقيت في مكانها، لم تجد من يزيلها أو ينتقصها.

لكن ما الموقف إذا تشبث الإنسان بالزلل وهو يدعى إلى الاستقامة،أو أصر على الخطأ وهو يرى وجه الحق وضيئا مشرقا؟

إن هذا الإنسان أجدر خلق الله بالمقت وأولاهم بالعقاب الآجل والعاجل.

وإنك لترى الوحي الإلهي طافحا بالوعيد وهو يتناول أولئك الجاحدين من صرعى التعصب الأعمى.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (**الأعراف: ١٤٦**).

ولنلفت النظر إلى أن الغفلة هنا ليست قصور عقل عن المعرفة الغائبة، ولكنها بلادة قلب عن استيعاب المعرفة المبذولة، والنصح القريب!

وهذا هو التعصب الذي يأباه على نفسه كل عاقل أو منصف.

والقرآن في آيات كثيرة يلمح إلى هذا المعنى وإن لم يذكر التعصب بلفظه، فإذا قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (**البقرة: ٦**).

فإن المقصود أناس طال نصحهم وطالت لجاجتهم، طال تعليمهم وطال صدودهم.. وليس المقصود وصف أقوام تعرض عليهم الدعوة لأول مرة.

وبديهي أن ينتهي هذا الصدود بما ينتهي به كل جحد وتبجح، من استمراء للشر واستهانة بالخير واستحلاء للقبيح.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ (**النمل: ٤، ٥**).

❖ ❖ ❖

وقد صحب التعصب من قديم حيف شديد على أهل الإيمان، وتطاول على حقوقهم المادية والأدبية، وتصوير كذوب لأقوالهم وأعمالهم، وإلحاق للمعايب والمقابح بسيرتهم وتاريخهم وكان نصيب الأمة الإسلامية كبيرًا من هذا التعصب الجائر الآثم.

ولست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم فإن الذئب المفترس لا يستكثر عليه أن يعقر ويغتال.

إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنياب الجائعة، والطوايا الكنود، ومع ذلك فهم غارّون مسترسلون في «طيبتهم» وتهاونهم.. فإلى متى؟

إن أرضنا انتقصت من أطرافها شرقًا وغربًا وفق خطة رسمت بأناة وروية.. ثم بدأت الإغارة على قلب العالم الإسلامي استكمالا للإجهاز عليه طولًا وعرضًا، فهلا عرفنا ما يراد بنا؟

إن في العالم الآن طوفانًا نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته، وأمامي وأنا أكتب هذه السطور أنباء الدماء المراقة والأشلاء الممزعة للمسلمين المستضعفين في الفلبين، وما قصة الإسلام الذبيح في الفلبين إلا نموذج مكرر لأقطار أخرى من الأرض، أهين فيها الدين واستبيح حماه، وشرد أهلوه، وأكلت حقوقهم! بل إن المسلمين- حيث يكونون كثرة في بلاد أخرى- تجرأ عليهم كل ذي ملة وتطلع إلى ما لم يكن يحلم به في يوم من الأيام!

ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض في هذه الظروف العصيبة؟

لعلنا.. لعلنا..

فإذا تحقق ما نصبو إليه فلله الحمد.

نحن ما نسعى إلى قتال ولا نشتاق إلى سفك دم.

لكن إذا فرض علينا القتال فإن الذرة من التهاون في كراهية المعتدين جريمة.

يجب أن ندخل المعركة بكل ما لدينا من غضب وقسوة وصرامة.